فاخذها معهُ وسارا متخاصرين الى كفر برعم اعمى يقود عمياء. واذا الشماس ذكي عالم كان سابقاً معلماً للاولاد محسناً لتفسير التعليم المسيحي فهداهُ ذكاؤهُ الى وجود طريقة للنجاة من ايدي الظالمين والى قطع المسافة بين عين ابل وحيفا ومنها الى بيروت وكان وصولنا الى بيروت في ٢٣ من ايار يوم عيد سيدة معونة النصارى التي استغثنا في هذه المحنة وأوصلتنا سالمات الى ديرنا القاصر

النصرانية وآدابها بين عرب الجاهلية

للاب لويس شيخو اليسوعي (تابع)

الفصل العاشر : الفنون الجميلة بين نصارى العرب : ١ الهندسة (تتمة)

﴿ الهندسة المدنية ﴾ قد اتسعنا في ذكر الهندسة النصرانية الدينية في عهد الجاهلية واوائل الاسلام بين العرب . وفي جزيرتهم ايضاً ابنية غيرها مدنية كالقصور والحصون وغير ذلك مما يشيدهُ الملوك والدولات لاغراضهم الخاصة او لشؤون مملكتهم . وهذه الآثار كثيرة في كل انحاء العرب ولاسيما في ممالكها الثلث اي التابعة في اليمن والمناذرة في العراق والغساسنة في الشام وورد شيء من ذكرها في الشعر الجاهلي والتقليد القديم وكشف على بعضها اصحاب الرحل الى جزيرة العرب في الحقبة الاخيرة . فهذه المباني لا يُعرَف لها غالباً تاريخ ولم تُذكر اسماء بُناتها ولا جرم انَّ للنصارى في قسم منها نصيباً صالحاً

وان باشرنا بالعراق وشمالي الجزيرة وجدنا في شعر الاسود بن يَعفر بعض قصور لآل محرّق ولبني إياد فقال :

ماذا اؤمل بعد آل محرّق تركوا منازلهم وبعد إيادِ
اهل الخَوَرْنق والسدير وبارق والقصر ذي الشرفات من سنداد

فهذه القصور بُنيت للملوك نصارى وقد تولّى بناءها مهندسون نصارى ذكروا

احدهم وهو رجل رومي يقال له سِنِمّار بنى الخورنق للنعمان الكبير (ياقوت ٢ : ٤٩١)

وقد اطرأ العرب محاسن الخَوَرْنق دون ان يدققوا في وصف بُنائه . ولعلّهُ هو القصر الذي زارهُ المستشرق البارع لويس ماسينيون سنة ١٩٠٨ المعروف بقصر الأُخَيْضر وألفت اليه نظر العلماء في جمعيّة الكتابات والفنون سنة ١٩٠٩ ثمّ زارتهُ الآنسة الانكليزيّة مس بل سنة ١٩١٠ واحسنت وصفهُ في كتابها المدعو (Amurath to Amurath) واثبتت صورهُ (ص ١٤٧—١٥٨) وهو بناء عظيم ذو طابقين تدلّ بقاياهُ الجليلة على عظم شأنه امّا اسمهُ الأخيضر فقد اختلفوا في اصله ولعلّ الاصحّ ما قيل في ذلك انهُ تصحيف الأكيدر صاحب دومة الجَنْدَل النصراني الذي مرّ لنا ذكرهُ (ج ١ ص ١٠٨) . وقد جاء هناك عن البلاذري ان عمر بن الخطّاب نفاهُ من وطنه لمخالفته دين الاسلام فنزل موضعاً قرب عين تمر في جهات العراق وبنى به منازل سمّاها دومة باسم حصنه (راجع مجلّة لغة العرب ٢ : ٤٧)

وممّا ذكرهُ ياقوت في معجم البلدان (٤ : ١١٦) من الابنية النصرانيّة المدنيّة قصر العَدَسيّين قال « انهُ في طرف الحيرة لبني عمار بن عبد المسيح نُسبوا الى جدّتهم عَدَسة بنت مالك بن عوف الكلبيّ »

ولا نشكّ في انّ النصارى هم الذين شيّدوا للخلفاء وامراء العراق مبانيهم . فانّ الالمانيين ارباب الحفريّات في سامرّا وجدوا بين انقاضها صوراً وتماثيل اشخاص بالوانها مع رسوم هندسيّة متنوعة وصابان كثيرة موقعة باسم شماس نسطوري بارع بالتصوير ورد اسمهُ على صورة «مسيح» (محققة)

وقد افادنا ياقوت الرومي (٤ : ٤١٣) انّ قصر الخليفة المتوكل المعروف بالجعفري الجامع لكل محاسن البناء كان بانيه دليل بن يعقوب النصراني كاتب بغا الشرابي

وممّا وقف عليه الاثريّون والسيّاح في ايّامنا من الابنية الجليلة والآثار البديعة في جهات العرب في الحمّاء مؤاب غربيّ وادي سرحان عدّة قصور فخيمة ومعاقل جليلة سبق لنا ذكرها في المشرق غير مرّة (١ [١٨٩٨] : ٤٨١ و ٦٣١ ثم ٤ [١٩٠١] : ٧٦٥ — ٧٦٦ الخ) كالمشتّى وقُصَيْر عَمْرة وطوبة وفيها من الآثار الهندسيّة ومن التصاوير وتمثيل احوال البادية كالصيد والغزوات والمآدب والصنائع ما اذهل العلماء

لوجوده في البراريّ . واتّسعت منذ ذاك الحين مجلات العلماء ولاسيّما تآليف المستشرقين في وصفها والبحث عن بُناتها ومصوّريها . واليوم قد رجّح العلماء ان هذه الابنية من عهد الوليد بن يزيد الخليفة الامويّ . وكان يفضّل العيش في البادية على المدن . فيصرف القناطير المقنطرة لبنا. تلك الآثار ليسكناهُ وسكنى جنودهِ وحاشيتهِ . اما مهندسو هذه القصور فكانوا ايضاً من نصارى الشام ومصر والجزيرة وقد نسبها العلماء اوّلاً الى بعض ملوك العجم ثمّ الى بني غسّان او الى بني لخم حتّى رجّحوا آخراً كونها للوليد بناها لهُ النصارى الوطنيّون . وفي هندسة هذه القصور ما استدلّوا بهِ على بلادهم المختلفة فكأن كلّ فريق منهم تتبع طريقتهُ الهندسيّة التي اعتادها في موطنهِ . وقد وقف حضرة الاب هنري لامنس في تاريخ بطاركة مصر لساويروس بن المقفّع على ما يؤيّد نسبة هذه البنايات في بوادي العرب للوليد . قال ابن المقفع :

« وضبط الملك (بعد هشام) الوليد بن يزيد بن عبد الملك وكان جفنهُ يبغضهُ فبدأ ببني مدينة على اسمهِ في البريّة وجعل انساناً عليها وكان الماء بعيداً منها خمسة عشر ميلاً وجمع الناس من كلّ موضع وبنى فيها بيد قويّة ومن كثرة الناس كان يموت كلّ يوم فيها جماعة من قلّة الماء وكان يحمل لها الماء الف وماتنا جمل وما يكفيهم كلّ يوم وكانوا الجمال فرقتين ٦٠٠ تحمل يوماً و ٦٠٠ تحمل يوماً فوثب عليهِ رجل اسمهُ ابراهيم (١ فقتلهُ واخذ الملك منهُ واطلق الاسارى فمضى كلّ منهم الى موضعهِ »

ولو تتبّعنا بعد هذا المآثر البنائيّة العربيّة في شمالي الشام وفي باديتها وما وراء الاردن وفي الحجاز واليمن وفي مصر لوجدنا آثار الهندسة المدنيّة النصرانيّة في كثير منها غير ان هذه الفنون الهندسيّة لم يُحكم العلماء درسها ليتحقّقوا اصلها ودقائق صُنعها وفي القليل ممّا ذكرناهُ دليل كافٍ لاثبات قولنا بانّ النصارى اكبر فضل في البناء العربيّ الدينيّ والمدني معاً (لهُ بقيّة)

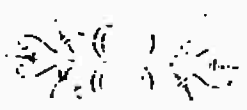

١) والصواب ان الوليد قُتل في محاربة يزيد الثالث ابن عمهِ قتلهُ بعد انتصارهِ عليهِ ولم يطل زمن ملك يزيد ثمّ ملك بعده ابراهيم المذكور هنا